الفصل الثانى والعشرون

المعاصرة .. أو الحداثة

إن الذى أصاب الأدب من جراء المحاكاة والتقليد لحضارة الغرب وآدابه خطر جسيم ، وتتبعه غير مستطاع ، لذلك فإنّا نكتفى بذكر آفة واحدة قاتلة مُنِىَ بها الأدب العربى المعاصر وهى ما كانت تسمى قبلاً بالمعاصرة ، ثم سميت أخيراً بالحداثة ، وكلتا التسميتين تعنيان دفن التراث وهو حى . وتدعوان إلى تجديد الفكر والأدب والفن ، بل والعقائد والأخلاق والسلوك بما يتفق - على حد زعمهم - مع روح العصر وقيمه . وهم يريدون بقيم العصر ما تعلموه أو « عُلِّمُوه » - بالبناء للمجهول - من فكر الغرب الحديث وحضارته المادية المعادية للدين أياً كان ذلك الدين الذى تعاديه ، وتتمرد عليه بل وتحطمه ؟!

وقد نتج عن هذه الدعوة عدة مخاطر هى الآن آخذة فى التجرؤ والوقاحة السافرة :

١ - من تلك المخاطر أنهم تمردوا أولاً فى مجال الشعر على الشعر الموزون المقفى ، وأحلوا محله ما يسمى الآن : بـ « الشعر الحر » ، وهو عبارة عن صف أسطر تطول وتقصر فى فوضى تدعو للاشمئزاز . وهذا مثال وجيز من شعر صلاح عبد الصبور : ينعى فيه « الحب » وقد رمز إليه بـ « الطفل » على عادة الرمزيين :

« قولى ... أمات ؟

جسِّيه ، جسِّى وجنتيه

هذا البريق .

ما زال ومض منه يفرش مقلتيه ..

ومضى الشعاع بعينه الهدباء ومضته الأخيرة

ثم احترق »

ويمضى صلاح الدين عبد الصبور على هذا المنوال حتى نهاية المقطوعة .

كلام صلاح هذا شبيه بمقطع من قصيدة لڤيكتور هيجو فى وصف مصر ، تجد التشابه كبيراً بين النَظْم الشعرى عندهما ، يقول هيجو :

« مصر الشقراء بسنابلها تنبسط

حقولها الفاتنة كأنها الأردية الفاخرة

يتجاذبها من شمالها جو بارد ، ومن جنوبها رمال حارة

وهى لا تفتأ تبتسم

لهذا النزاع الذى ينشب بينها وبين البحر والصحراء » .

ثم قارن شعرى كل منهما بأبيات لجليلة بنت مر الشيبانى من العصر الجاهلى أخت جساس وزوجة كليب الذى قتله أخوها :

فعل جساس ، على وجدى به قاطع ظهرى ومدنٍ أجلـــى

يا نسائى دونكن اليوم ، قد خصنى الدهر برزء معضـــلِ

خصـــنى قتل كليب بلظـــى من ورائي ، ولظى مستقبلى

والفرق بين شعرها وشعرهما :

أن شعرها موزون مقفى ذو موسيقى شاجية ناتجة عن الوزن الداخلى للأبيات ، ثم الرنين المكانى للقافية .

أما شعرهما فخال من الوزن والتقفية ، وهو عبارة عن أسطر شبه منثورة .

وترى صلاح عبد الصبور قد تأسى بمناهج الشعر الغربى فخلا شعره من أخص خصائص الشعر العربى الأصيل . ونحا هذا المنحى كثيرون غير صلاح عبد الصبور ، ومن الحق أن يقال : مع خلوه من الوزن والقافية تبدو فيه ملامح الفكرة ظاهرة .

٢ - ومن تلك المخاطر : الغموض الذى يكتنف الفكرة سواء أكانت جزئية أو كلية . فإنك تقرأ ما يسمى بالقصيدة عندهم فلا تفهم معانى جملها ولا معانى هيكلها . بل هى عبارة عن كلمات عربية - رصفت رصفاً غريباً متنافراً - حتى صارت رطانات وطنطنات عابثة . وإليك التمثيل ..

فهذه مقطوعة من قصيدة لحداثية اسمها « هدى الدغنق » تقول فيها :

« لأنى نفيت من الحلم بالأمس

سامرت قيظاً ؟!

وجعاً منح الوقت وقتاً ؟!

واجترى أن به الوسم ؟!

لأنى عاصرتُ حالة دفنى

تجزرتُ بالرمل ؟!

مارستُ توق الخروج عن الخارطة

ولأن الخريف طوى قامتى . ولأن » ؟!

فقل لى بربك : هل فهمتَ شيئاً من هذه الرطانة أو هذه الطنطنة الجوفاء الفارغة ؟!

أنا أشك أن صاحبة هذا الكلام - إن جاز تسمية غير المفيد كلاماً - أشك أنها تفهم شيئاً مما تقول ، فضلاً أن يفهم حداثى آخر غيرها شيئاً مما هرفت به .

٣ - ومن المخاطر أن هؤلاء الحداثيين يسمون هذه الثرثرة أو الإغراب والغموض المتعمد إبداعاً وابتكاراً فى دنيا الأدب . وسمة الإبداع عندهم أن

تخلو « القصيدة » إياها من أى غرض أو معنى ، ويفلسفون هذا « المسخ » بأن القصيدة التى لا يضمنها صاحبها أى غرض أو معنى تظل تنمو وتكبر وتتعدد معانيها « التائهة » بتعدد قرائها ، ولنضرب لذلك مثلاً كلمة «شجرة » إذا وردت فى قصيدة حداثية . فقارىء يفهم منها : بحر ، وآخر يفهم منها : نار ، وثالث يفهم منها : حمار ، ورابع يفهم منها : ثور ؟؟!

وبهذا تفقد اللغة وظيفتها العاقلة وتكتسب وظيفة أخرى هى الجنون والخبل ؟!

يقول أحد الحداثيين العرب فى كتاب له حداثى دعاه : « الكتابة خارج الأقواس » [1] :

« إن ظاهرة الغموض التى من شأنها أن تعد السمة الأولى للقصيدة الجديدة - يعنى الحداثية - نتيجة حتمية أفضت إليها سلسلة من التطورات التى طرأت على العلاقة المتوترة بين الشاعر المبدع ، والقارىء المتلقى ... ومن هنا أصبح من الصعب علينا أن نفهم القصيدة الجديدة بعد أن تخلت من أن يكون لها غرض ما . وأصبحت اللغة فيها لا تشير أو تحيل إلى معنى محدد ، وإنما هى توحى بالمعنى إيحاءً بحيث لا تنتهى القصيدة عند انتهاء الشاعر منها ، وإنما تظل تنمو فى نفس كل قارىء من قرائها ، حتى يوشك أن يصبح لها من المعانى بعدد ما لها من قراء » ؟؟ [2] .

إلى هذا الحد يستخف الحداثيون عقولهم وعقول الناس . وارجع إن شئت لمعانى كلمة « شَجرة » التى ضربنا بها مثلاً للتطور اللغوى عند هؤلاء الحداثيين لتقف على مقدار البله الذى يمسى فيه الحداثيون ويصبحون ؟!

---

(١) يعنى الكتابة الحرة التى لا تخضع لأية قيمة من القيم مهما كان مصدرها . أى التمرد على كل مألوف .

(٢) انظر : الحداثة فى ميزان الإسلام ، ص ٣٩

٤ - ومن أشد المخاطر ضرراً أن هؤلاء الحداثيين بعد تمردهم على الأصول الفنية للأدب ، وعلى الدلالات المحددة للغة فإنهم اتخذوا من الإسلام وقيمه صيداً يوجهون إليه سهامهم الطائشة سافرة حيناً ، ومقنَّعة حيناً آخر ، ولا نكون مجاوزين للحقيقة إذا قلنا: إن الكيد للإسلام هو الغاية عندهم ، وما تقدَّم من مساوئهم وسائل خسيسة للوصول إلى هذه الغاية ؟! وإليك مقتطفات من كلامهم الذى لم يعد يتشح بالرموز ، بل هو ناطق صريح بكل وقاحاتهم .

يقول أحدهم :

« يجب أن نخلع جبة الأصول ، وقلنسوة الوعظ ، لنترك للشاعر حرية مساءلة النص ، ونقض الماضى وتجاربه ، ولنترك لأنفسنا فسحة لنصغى لتجربته الجديدة ، وما تقترحه من أسئلة . وليس هذا من حق الشاعر فحسب ، ولكنه حق حياتنا المعاصرة علينا » (١) .

هذا الكلام يحمل شحنة من التمرد يزعمون أنها وظيفة الأديب والأدب الآن . بل إنهم يزعمون أن هذا التمرد لا ينبغى أن يُحصر فى مجال الأدب . ولكنه رسالة العصر سواء أكان المتمرد أديباً أو غير أديب .

وكلمات « الماضى والتراث ، وسلطان التاريخ والقداسة » -وما أشبه هذه الكلمات - لا يقصد منها الحداثيون إلا الإسلام وما يتصل به من فكر وأدب ، وقِيَم وسلوك وتراث .

ولذلك نرى الحداثيين الآن يثنون على كل فكر منحرف فى الجيل الذى مضى وبخاصة أولئك الذين كان لهم مساس مباشر بالتجرؤ على الإسلام . فخذ إليك - مثلاً - ما كتبته خالدة سعيدة فى مجلة فصول (٢) :

« عند ما كان طه حسين وعلى عبد الرازق يخوضان معركة زعزعة النموذج (يعنى الإسلام) بإسقاط صفة الأصالة فيه ، ورده إلى الموروث التاريخى ، فيؤكدان أن الإنسان يملك موروثه ، ولا يملكه هذا الموروث ، ويملك

---

(١) مجلة اليمامة العدد ١٠٩

(٢) المجلد الرابع جـ ٣ ، ص ٢٦

أن يحيله إلى موضوع للبحث العلمى والنظر ، كما يملك حق إعادة النظر فى ما اكتسب صفة القداسة (القرآن والحديث) وحق نزع الأسطورة عن المقدس ، وحق طرح الأسئلة والبحث عن الأجوبة » (؟!) .

* *

● لماذا طه وعبد الرازق :

الكاتبة نفسها أجابت عن هذا السؤال . فثناؤها على طه حسين وعلى عبد الرازق لأنهما تجرءآ فقالا :

* إن الإسلام والماضى الذى قام حوله موروث للإنسان ، والإنسان يملك موروثه ، وليس الموروث هو الذى يملك الوارث (؟!)

* وما دام الإنسان موروثاً فعلى الإنسان أن يتصرف فيه كيف يشاء كما يتصرف الوارث فى إرثه : يبيعه ، يجامل به ، يرعاه ، يهمله ، يستهلكه ، يلقى به فى لُجَة البحر ؟ أو حتى فى مقالب القمامة (؟!)

* وأنهما - طه والآخر - نزعا صفة القداسة عن المقدس (الإسلام) ومارسا حق تصرف الوارث فى إرثه فأخضعا الإسلام للنقض والأخذ والرد ، وأعطيا أنفسهما حق مناقشة مَن يدافع عن الإسلام (؟!)

والكاتبة صادقة فيما نسبته إلى الرجلين ، وقد أشرنا كثيراً فيما مضى إلى دور طه حسين فى التمرد والتخريب . أما على عبد الرازق فيكفى أن نشير الآن إلى أنه دعا إلى عزل الإسلام عن الحكم والسياسة وعن تدبير شئون الحياة ، وأن يكون صلة بين العبد وخالقه فحسب ، مكانه المسجد أو خلوة العبادة ، ومحظور عليه أن يظهر أو يخرج إلى الشارع . ثم انقض على عبد الرازق على السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين فغضَّ من شأنها وحرَّف تفسيرها وأساء إلى صاحب الدعوة وخلفائه وصحابته . وذلك فى كتاب صدر باسمه عام ١٩٢٦ .. وسيأتى حديث مفصَّل عنه بإذن اللّه فى المبحث الأخير من هذه الدراسة .

* *

● أدونيس والنصوص المقدسة :

ونختم الحديث عن تأثر الأدب بالحضارة الغربية بما قاله المدعو « أدونيس » الذى تستر بالإسلام ليكيد له من الداخل ، وهو فى الواقع صليبى وقح طول عمره . كتب « أدونيس » هذا أربع مقالات فى صفحة الحوار القومى بجريدة الأهرام التى يحررها الماركسيون (فى ١٩٨٩/٢/٤ ، ثم ١١ ، ثم ١٨، ثم ١٩٨٩/٢/٢٥) . وقد تحدَّث فى تلك المقالات عن أزمة الإبداع الأدبى ، ثم القراءة الثانية لنصوص التاريخ (يعنى التراث) وحاول أن يستخدم الذكاء فى عرض فكره ، فأظهر إيمانه بالنصوص المقدسة : القرآن والسُنَّة ، واحترامه للنصوص التاريخية : الشعر الجاهلى وما تلاه من عصور الأدب الإسلامى . وإلى هنا فلا غرابة ولا مؤاخذة ، أما الخطر كل الخطر ، فإن هذا « العابث » يدعو إلى رفض كل تفاسير القرآن ، وكل شروح السُنَّة ؛ ويفرِّق بين الأمرين بأن نصوص القرآن والسُنَّة ثوابت ، أما التفاسير والشروح فإنها متغيرات ، ويزيِّن هذا التمرد بقوله : إن اعتمادنا للتفاسير والشروح الموروثة معناه أن النصوص المقدسة قد استنفدت واستغلقت (؟!)

وهذا الدعوى الماكرة تدخل ضمن خطة استشراقية تبشيرية استعمارية سوف نزيح عنها اللثام فى المبحث الأخير بإذن الله ، والذى نريد قوله هنا فى إيجاز : أن المعاصرة والحداثة جوازا سفر لنقل حضارة أوروبا إلى ديار الإسلام ، باعتبارها خطة من خطط مواجهة أوروبا للإسلام كما تقدَّم .

* *

● الفن :

مضى الحديث عن الثقافة والأدب ، وكيف كانا معبرين خطيرين للجوانب المضرة من الحضارة الغربية ، ونحن الآن بصدد الحديث عن الفن ، ولكن من المستحسن أن نفرِّق بين الفن وبين كل من الثقافة العامة والأدب من حيث الأهداف التخريبية المرادة من كل معبر من هذه المعابر الثلاثة ؛ فكل من الثقافة

والأدب مرصود للتأثير على الخاصة من أبناء المجتمعات الإسلامية ، وهم المثقفون وأنصاف المثقفين . وما كان أعداء الأمة ليكتفوا بهذا القَدْر من التأثير فأمامهم - بعد الطبقات الخاصة المثقفة - الجمهور العريض من المسلمين : ربات البيوت - وإن كن غير مثقفات ولا قارئات ولا كاتبات - العمال ، الحرفيون ، الصغار من البنين والبنات الذين لا صلة لهم بالكلمة المكتوبة . أيُترك هؤلاء بعيداً عن المصيدة ؟ كلا . إن لهم فى خطط أعداء الإسلام مناهج لا عمق فيها ولا صعوبة ، مناهج تُبَث فى كل مكان ويسهل التأثر بها فى كل الظروف . لغة سهلة يفهمها جميع مَن رأى ومَن سمع ؟! إنه : الفن ، ذلك الوباء الذى يدخل كل بيت فيفترس كل مَن فيه بلا تفرقة بين أفراد الأسرة ، فالجميع مستهدَفون ليكونوا صرعى الفن مهما تحفظوا .

والفن سلاح ذو حدين : سلاح بناء وتوجيه وإصلاح ، إذا أريد منه البناء والتوجيه والإصلاح .

وسلاح هدم وتضليل وإفساد ، إذا أريد منه الهدم والتضليل والإفساد .

وقد أريد لنا أن نريد منه الهدم والتضليل والإفساد ، فكان ما أردناه وزيادة. أو كان ما أرادوه لنا .

خطر الفن منذ ثلاثين عاماً كان محدوداً ؛ لأنه كان يُسعَى إليه . أما بعد زيوع التليفزيون فى البيوت فأصبح الفن نفسه هو الذى يسعى لافتراس ضحاياه . بالإضافة إلى موابق الفن التقليدية : المسرح والسينما ، والملاهى الراقصة ، العارية ، المخمورة ؟!

أوبئة فتّاكة ، تعددت مصادرها . وتفاقمت شرورها ، والكاسب الوحيد هو عدو الأمة ، والخاسر الوحيد هو الأمة . تقتل نفسها بمالها وجهدها وطاقاتها . وتدير الحبل حول عنقها بيدها ، وهى تحسب أنه قلادة يزدان بها جِيدها ؟!

* *

● سوء الاختيار :

لا أريد أن اشغل القارىء بأمور هو بها عليم . وإنما أشير إلى سوء الاختيار الذى يتخبط فيه الفن عندنا . فأوروبا ورثت حضارة اليونان فيما ورثت ، ومنها فن المسرح الذى وضعه بعض فلاسفة اليونان القدماء ، وأدب المسرح كان عندهم نوعين : مأساة وملهاة ، أو تراچيدى وكوميدى ، أو جَدِّى وفكاهى هزلى . ولكل نوع عندهم قواعد وأصول وغايات . فالنوع الأول محاكاة لأفعال النبلاء وعِلْية الناس . والنوع الثانى : الملهاة - محاكاة لأفعال أراذل الناس لإثارة الضحك . ونحن مع علمنا بموضوعات هذين النوعين ، لم نختر الجانب الجاد منها بل اخترنا الجانب الهزلى . ثم قصرنا وظيفته على إثارة الضحك من أجل أنه ضحك وكفى . وهذا هو ما يحرص عليه الفن عندنا .. فأخذ مؤلفو المواد الفنية يبحثون عن كل ما يثير الضحك مهما كان الثمن ، ولو كان على حساب الخُلُق والدين والقِيَم ، ولما أفلسوا فى هذا المجال ، واستقصوا أسباب الضحك « المعقولة » لم يكن أمامهم إلا التهريج والسفاسف ومحقرات الأمور : فتاة أو عروس تطبخ الملوخية بالساقو ؟! وعريسها يرتدى بلوزتها وينزل بها إلى الشارع ، وتلاميذ مدرسة المشاغبين يدخنون « الشيشة » أو « السبارص » فى غرفة الدرس ، وتلميذ نجيب يفرح لأن أباه احترق ؟! والأمثلة المسفة فى الفن لا تكاد تُحصَى ، وبعض الأعمال الفنية كل موادها من « الممنوع » ، وخذ مثالاً لذلك : الولاد كبرت . أو مدرسة الأخلاق الحميدة . فأين الفن فيما يقدمونه باسم الفن . ثم العرى الفاضح . والعلاقات المشينة ، واحتساء الخمور باسم الفن وإزهاق الأرواح . والألفاظ الساقطة ، والحركات المريبة ، والسخرية من القِيَم والأخلاق . كل هذا صار عندنا فناً رفيعاً عالياً مهذباً ؟ أليس هذا سوء اختيار منا لما نقدمه باسم الفن . وننفق عليه الملايين .

ومن سوء الاختيار - كذلك - الحلقات الأجنبية التى يعرضها التليفزيون ، وفيها من جرائم العِرض والمال والعنف ما فيها ، فتترك أثراً سيئاً وبخاصة عند

الشباب ؟! ولم تنتشر جرائم السطو المسلح والعصابات عندنا إلا بعد بث التليفزيون هذه المنوّعات فى كل بيت .

وهل ينسى القارىء تلك الجريمة التى ارتكبها طفل ضد أخته فى غياب الأم والأب حيث قتلها بالسكين ؛ لأنه شاهد عملاً فنياً فى التليفزيون وقعت فيه هذه الجريمة . فما كان من الطفل إلا محاكاتها فوقعت الكارثة كما اعترف الطفل نفسه ؟!

ومن المعلوم أن معظم المسلسلات التى يقدمها التليفزيون - إن لم تكن كلها - لم تخل من جريمة ، وشُرطة ، ونيابة . ليعد القارىء ويستعرض شريط الذكريات عما شاهده من تلك المسلسلات . فإنه من الصعب أن يعثر على مسلسل لم تدر وقائعه حول جريمة أو عدة جرائم . فلماذا هذا إذن ؟! السبب معروف . وهو أن مؤلفى المواد الفنية يسعون لتحقيق واحد من أمرين :

إما جذب المشاهد عن طريق الهزليات والبهلوانيات ، وإما التأثير عليه بجعله يفكر فى كشف غموض معروض فى النموذج الفنى المشاهَد .

ولذلك بات لزاماً على المؤلف والمخرج أن تقف الحلقة عند نقطة مثيرة تشد انتباه المشاهِد لما بعدها ؟!

ومن سوء الاختيار أن التليفزيون يتعمد إفساد أذواق الناس بالأساليب المسفة ، والألفاظ السوقية وخلو النماذج من كل مضمون هادف . إنه التهريج فى أجلى صوره . وليت الأمر وقف عند حد عرض هذه النماذج الساقطة لفترات قصيرة . ولكنها تستبد بوقت التليفزيون كله ، وتطغى على المواد الأخرى المفيدة أو المحايدة ، وقد أعدت دراسات جامعية (ماچستير ودكتوراة) عن المواد التى يقدمها التليفزيون . دراسات واقعية منهجية استخدمت فيها مناهج رصد وتحليل دقيقة ، وأثبتت تلك الدراسات أن المواد التى يقدمها التليفزيون تحت مسمى « الترفيه » تستبد بطاقات هائلة من حيث الوقت والجهد والمال . وأن المواد المفيدة على اختلاف مسمياتها نصيبها فيه هزيل للغاية .

ومما يدعو للتساؤل تلك الأعمال التى يقدمها التليفزيون فى ليالى الجُمَع والمواسم والأعياد ، وفى شهر رمضان المعظم حيث تستمر إلى الفجر فى ليالى الجُمَع أو قبيل الفجر بقليل ومعظمها تهريج مضحك ، ولا شئ آخر ؟!

ولو أن القائمين على شئون هذا الجهاز الخطر وجّهوه وجهة مثمرة مع قليل من المواد الترفيهية لكان له أثر عظيم فى التربية والتوجيه . وفى محاربة العادات والتقاليد السيئة ولأفلح أيما فلاح فى تنقية المجتمع منها . ولكنهم أبوا إلا أن يقدِّموا للشعب السموم القاتلة فى أكواب من العسل ؟!

* *

● وزارة لرعاية الإسفاف :

وعندنا وزارة أسميناها وزارة الثقافة ، هذه الوزارة انحرفت عن رسالتها وصارت وزارة لرعاية الإسفاف ؟! وبخاصة فى عهدها الحالى - ١٩٩٠ - وقد بدأت فى هذا الانحراف منذ زمن . ووقفت نشاطها على رعاية المسرح والسينما وما يسمى بقصور الثقافة ، تلك القصور التى تشجع العامية ، وتطلق على بعض الزجالين أنهم شعراء العامية ، والقارىء يعلم أن تشجيع العامية خطة مرسومة لأعداء الأمة .

ومن محاسن القَدَر أن بين يدىّ تحقيقاً صحفياً قامت به جريدة « النور » حول قصور الثقافة هذه ، وهى دراسة ميدانية قامت فيها الصحيفة بزيارة عدة قصور فى الريف ، وتحدثت مع مديريها . وقد لوحظ أن النشاط الإسلامى فى تلك القصور معدوم قطعاً . وأن نشاطها مقصور على تعليم الرقص والغناء والموسيقى . وأن جوائزها تدور حول : أحسن راقصة ؟! كما تُقدِّم تلك القصور مسرحيات عن الفن الشعبى وتنفق على المسرحية الواحدة ألف جنيه ؟!

ولما سأل محررو النور مديرى تلك القصور عن اختفاء النشاط الإسلامى فيها ، أجمعوا على أن الميزانيات ليس فيها بند واحد عن النشاط الإسلامى ؟!

أليست هذه حماقة وسفهاً ؟! وزارة اسمها وزارة الثقافة تُقصر نشاطها على السفاسف : رقص - غناء - تمثيل - اختياراً ملكة جمال أو قُبح . أهذه هى الثقافة فى مفهموم الوزارة والقائمين عليها . إنه - ورب السموات والأرض - إجرام يُرتَكب علناً فى حق الأمة ... ؟!

وتبديد لثرواتها فى حفر قبورها ، والقضاء على البقية الباقية من الفضائل .

وزارة كان المفروض فيها تثقيف العقول بالمعارف الرفيعة . إذا بها تنحدر عن رسالتها السامية ، وتتحول إلى أوكار للانحطاط الخُلُقى والذوقى ، وتدرب النشء على المجون والسخافة . أغاب وعى الأمة إلى هذا الحد أم أن بعض القوم مجندون لتحقيق مطامع الأعداء وتدمير الأجيال . إنها خيانة للأمانة ، ومؤامرة تحاك فى الخفاء ، وتنفذ فى العلن ؟!

* * *